

بسم الله الرحمن الرحيم طقوس ديان الصابئة المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد (p) وعلى آله وصحبه مصابيح الظلام ودعاة دين الحق دين الإسلام ، وبعد :

كنتُ قد كتبتُ بحثاً عن طقوس الديانة الأيزيدية ، إذ هي ديانة قوم يعيشون في العراق وبعض دول جوار العراق . وقد ارتأيتُ أن أكتب بحثاً آخر يخص شريحة قديمة الوجود في العراق وكانت لهم أخبار ، عندما فتح العرب المسلمون العراق ، في التاريخ القديم ، إنهم الصابئة الذين ذكرهم القرآن الكريم في ثلاث آيات البقرة ، والمائدة ، والحج .

ولا بد لمن يروم الكتابة في موضوع ما أن يقدم بين يدي القارئ الدوافع والأسباب التي حدثت به ودفعته لاختيار الموضوع والكتابة فيه، واستعراض المصادر والمراجع التي استقى منها معلوماته البحثية . ويتلو هذه المقدمة قراءة للمظان المعتمدة في إنجاز فقرات هذا البحث ، وبيان المنهج الذي أتبعه كل مؤلف في كتابه ، وسنرتب هذا حسب تاريخ صدورها لتمكن كاتب البحث في إنجاز مفردات بحثه ومعرفة التطور الذي طرأ على هذه المظان .

وقبل أن أقدم المسوغ أو الدافع أو المحرّك ينبغي الإجابة عن التساؤل التالي: من أين أتت الصابئة إلى العراق ؟ وهذا السؤال لا يفرض بهذا الإلحاح والحدة إلاّ على الجماعات العراقية وكأنّ العيش لقرون وحتى آلاف السنين لا يكفي لكي تنتمي هذه الجماعات للعراق ، بل عليها دائماً أن تبحث عن موطنها السابق المفترض حتى لو كانت هجرته قبل مليون عام ، وضمن هذا السياق فإن كان من الأجدى البحث عن وطن أصلي غير العراق ، فقد افترض الباحثون أصل الصابئة يعود إلى احتمالين : الصابئة الحرائية نسبة إلى مدينة حران شمال بلاد الرافدين ، وهناك من يعتقد بأن أصلهم يعود إلى الطائفة العرفانية العيسانية في فلسطين ومنها هاجروا قبل الميلاد إلى جنوب العراق لظروف متعددة ، إذاً موطن هؤلاء القوم أنهم لا يتجاوزون بلاد العرب في وقت لم يكن يفصل العرب حدود ، وإن ما غلب على ديانة الصابئة من الكتمان

واختلاف المؤرخين في حقيقة أمرهم وديانتهم يقف دافعاً رئيساً للكتابة عن طقوس ديانة الصابئة .

ومن دوافع الكتابة عن ديانة هو كونها ديانة مغلقة على أصحابها ، فهي ليست تبشيرية ، وفضلاً عن هذا اختلاف المتخصصين في هذه الديانة فمنهم من يراها ديانة توحيدية قديمة جداً ، وهي قريبة من الديانة الحنيفية عند العرب قبل الإسلام . بينما يرى آخرون أن الصابئة طائفة من المسيحية كونهم أي الصابئة يشتركون مع المسيحية في بعض الطقوس الدينية من التعميد بالماء الجاري . ويرى بعض المؤرخين أن الصابئة فرقة من الديانة اليهودية . ولعل الغموض والكتمان الذي تتسم به ديانة الصابئة ، وفضلاً عن هذا أمور أخرى منها وجود تشابه بين بعض طقوس ديانة الصابئة وبين الديانات الأخرى يقف سبباً رئيساً للاختلاف بين المؤرخين لأن ينسب باحث طائفة الصابئة إلى طائفة أخرى من الأديان يرى بينهما صلة بسبب التماثل بين الطقوس . وليس هذا فحسب بل بعض المؤرخين عدّ الصابئة من أهل الوثنية نتيجة اعتقادهم وعبادتهم الكواكب ، ثم أن بعض الدارسين يقسم الصابئة على طائفتين : مندائيين ووثنيين يعبدون الكواكب وخصوا بهؤلاء صابئة حران أصحاب القصة التي روتها المظان مع الخليفة العباسي المأمون كما سنرى .

والى جانب ما ذكر من تباين واختلاف في طقوس هذه الطائفة ، فقد تباينت الأفكار في جذور هذه الطائفة ومعتقداتها والأنبياء الذين بُعثوا لهؤلاء القوم ، فهناك من يرى من أبناء هذه الطائفة أن نبيهم هو آدم عليه السلام ، بينما يرى آخرون أن نبيهم هو يحيى عليه السلام ، ويرى آخرون غير هذا ، وسوف يتم إيضاح الطقوس التي كان يؤديها الصابئون من خلال سطور هذا البحث و فقراته موثقين ذلك بما تيسر لنا من مصادر تاريخية قديمة وحديثة مراعين في ذلك تسلسلها في الصدور مقدمين المصادر على المراجع ، والله الموفق .

الباحثان

م.م. خالد أحمد العيثاوي د. أحمد حسين العيثاوي

قراءة في مظان ديانة الصابئة :

القرآن الكريم

إن أول ذكر لهذه الديانة جاء في القرآن الكريم . ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، إنه كتاب الله الكريم المنزل على نبيه محمد الصادق الأمين . فقد ذكر الصابئة في ثلاث آيات هي :

الأولى في سورة البقرة الآية 62 بقوله تعالى :

" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " .

الثانية في سورة المائدة الآية 69 بقوله تعالى :

" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " .

الثالثة في سورة الحج الآية 16 بقوله :

" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " .

- الملل والنحل ، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت 549هـ) :

الكتاب دائرة معارف مختصرة للأديان والمذاهب والفرق والمدارس الفلسفية المتعلقة بما وراء الطبيعة التي عُرِفَت في عصر المؤلف ، وقد حاز الكتاب إعجاب وتقدير الكثير من المختصين في الشرق والغرب . وعلى الرغم من ذلك فلم يأتِ على كثير من الديانات التي كانت في زمانه .

أما ذكره للصابئة فقد جاءت في القسم الأول ضمن العنوان العام " أرباب الديانات والملل من المسلمين وأهل الكتاب ممن له شبهة كتاب ، إذ ذكرهم بعد المجوسية ص 232 ، كما ذكرهم المؤلف مرة أخرى في القسم الثاني ضمن عنوان : " أهل الأهواء والنحل " وذلك في الفصل الأول : الصابئة . ثم فصل الكلام عنهم في الفصل الثاني " أصحاب الروحانيات " وذلك في المناظرة التي عقدها بين الصابئة والحنفاء ص 266 وما بعدها .

- الحور العين للأمير علامة اليمن أبو سعيد نشوان الحميري (ت 573هـ) تحدث فيه مؤلفه عن موضوعات اللغة والعروض والقافية ، كما تناول بإسهاب المذاهب البشرية ،

والمباحث الفلسفية في أصل العالم على رأي الطبيعيين والفلاسفة والأطباء، ومختلف الملل والنحل وشتى المذاهب والفرق من إسلامية ، إلى نصرانية، إلى يهودية ، إلى مجوسية ، إلى صابئة ... وجاءت إشارة المؤلف مختصرة جداً ص 141 .

- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، وقد أشار منظمو الندوة إلى منهجيتهم في تقديم دراسة جادة تضع الحقائق في إطار موضوعي دقيق مركز تتحاشى الإسهاب ، وتتجنب السطحية ، وتلتزم الصدق والأمانة وتبتعد عن التهجم والتجريح ، وتعتمد المصادر المتوافرة ... وقام المنهج الذي اعتمده هذا المظن على : التعريف المُركّز للموضوع الذي يعالجه ، ثم التأسيس ، وبرز الشخصيات ، الأفكار والمعتقدات ، الجذور الفكرية والعقائدية ، الانتشار ومواقع النفوذ ، ثم ختم بقائمة المراجع المعتمدة لمن أراد التوسع ... وقد ذكر الصابئة تحت عنوان (الصابئة المندائيون) ص 317 وما بعدها .

- موسوعة المعرفة ، العقائد والأديان ، جمع وإعداد عبد القادر صالح ، وأشار المؤلف إلى المنهج الذي أتبعه بإسناد المعلومات التي أخذها عن كل دين أو طائفة إلى الجهة التي أخذ عنها المعلومات ، واحترام الموضوعية والحيادية ، وحذف كل كلمة تشير إلى النيل من فرقة أو مذهب أو جماعة ، من زعموا أو افتروا ... وأخضع المؤلف بحثه عن كل فرقة للتقسيم والترتيب ، فكان هناك العنوان الرئيس ، ثم العناوين الفرعية ، والمعلومات مبنوثة تحت هذه العناوين . وأشار المؤلف إلى ما أفاده من الدراسات السابقة . وجاء ذكر الصابئة تحت حرف الصاد ص 190 وما بعدها .

- الصابئة المندائيون ، الليدي داروور ، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي حيث قام المترجمان بترجمة القسم الأول من الكتاب المعنون : (المندائيون في العراق وإيران) وهو يعالج تاريخ الصابئيين ، وتسميتهم وعاداتهم وتقاليدهم وشعائهم الدينية ولغتهم بالتفصيل ، هذا فيما يخص القسم الأول . أما القسم الثاني من الكتاب وهو خاص ببعض الأساطير والقصص الدينية ، فقد ارتأى المترجمان تأجيل نشره...

يحتوي القسم الأول من الكتاب على أربعة عشر فصلاً . تأتي أهمية الكتاب في كون المؤلفة اتصلت شخصياً وبصورة مباشرة بالصابئيين في العراق وإيران لمدة أربعة

عشر عاماً قضتها دراسة ومشاهدة ، بل وحتى ممارسة في بعض الأحيان لبعض المراسم لإتقانها وتسجيلها تسجيلاً دقيقاً . وتعتبر المؤلف المرجع الأجنبي الرئيس في دين الصابئين وفي لغتهم .

- الصابئون في حاضرهم وماضيهم ، بقلم السيد عبد الرزاق الحسني ، هي رسالة . كما سماها . المؤلف تبحث في الصابئة قديماً وحديثاً وتتكلم عن معتقداتهم الروحية ، وفرقهم الدينية وكتبهم المقدسة ، وعن " يحيى بن زكريا " الذي ينتمون إليه ، وتضم بين دفتيها أدق المعلومات وأصدقها عن طقوسهم الدينية ، وعاداتهم الاجتماعية ، وأعيادهم القومية وعدد نفوسهم ، ومساكنهم ، وصناعاتهم ، والمحرمات عندهم .

- الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، د. مصطفى عبد اللطيف جياووك ، برغم أن هذا الكتاب هو دراسة جامعية ، فقد عرّج مؤلفها على دراسة الصابئة في الفصل الأول المعنون بـ عقائد الجاهلية حيث سمى مبحث الصابئة بـ : الصابئة وعبدة الرحمن ، ضمن عنوان فرعي هو : أهل الكتاب : اليهودية ، النصرانية ، الصابئة وعبدة الرحمن .

وابتداً في دراسته للصابئة بما ذكره عنهم القرآن ثم استعرض آراء المؤرخين العرب منهم الطبري ، والزمخشري ، والآلوسي ... وجاء ذكر الصابئة ص 75 وما بعدها .

- ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي ، د. صادق مكي ، يقول مؤلف الكتاب : تلمست أدب الجاهليين أبحث فيه عن ملامح الفكر الديني في شعرهم بحثاً عن الضوء .. مجتهداً في سلوك منهج علمي واضح يقوم على أساس تعيين عدد من شعراء الجاهلية في نجد والحجاز ، ودرست دواوينهم متتبعاً ذلك الفكر الديني . وقد تحدّث المؤلف عن الصابئة في ص 49 وما بعدها .

- الأديان والمذاهب بالعراق ، رشيد الخيون ، وصف المؤلف كتابه قائلاً : لا زالت خارطة العراق الدينية والمذهبية غنية بالتنوع ، وهذا الكتاب يعنى بالأديان الحيّة فقط ، ولم يأخذ العدد بنظر الاعتبار ، فلم يتعامل بمصطلح الأقلية والأكثرية ذلك لما في هذا المصطلح أي الأقلية والأكثرية من حرمان وإلغاء الحقوق التاريخية والشراكة المتوازنة

في الوطن الواحد ، إضافة إلى ما يولده المصطلح من شعور بالضعف والاغتراب وبالتالي يصبح وطن الأكثرية فقط ، والمواطنة حقوق لا تخضع لحكم الأقلية والأكثرية ، وببغداد والموصل ومدن العراق الأخرى تتجاوز الأديان والمذاهب محال مختلفة ، محال مغلقة لدين أو مذهب ولم يؤثر في سلامة هذا التجاوز غير الموقف السياسي والتعصب الأعمى باسم الدين ... والأديان والمذاهب كافة لديها فسحة من التسامح قد تضيق وتتسع وبالنتيجة لم يصل الأمر إلى إلغاء الآخر .

خصص المؤلف الفصل الأول للصابئة ، وقد أستعرض تاريخ الصابئة ووجودهم في العراق ، وتعامل الحكومات معهم بدءاً من الخلافة العباسية مروراً بالدولة العثمانية وصولاً إلى قيام دولة العراق في العصر الحديث وقيام الحكم الوطني العراقي حيث ذكر المؤلف تشريع القوانين المعترفة بالصابئة وأعيادهم الدينية واعتبار أيامها عطلاً رسمية . كما بيّن المؤلف أعدادهم في العراق حسب الإحصائيات القائمة على التعداد السكاني للعراق .

- موسوعة اللغات العراقية ، خمسة آلاف عام من كلام النهرين ، وتبحث الموسوعة في اللغات العراقية ، وهي عمل جماعي حيث عدّ 15 لغة عراقية بينها اللغة العربية وجاءت تسلسل لغة الصابئة (المندائية) الثامنة . وسبق الحديث عن اللغة المندائية الكلام عن الصابئة المندائيين . أصل الصابئة ، الصابئة الحرائية ، طوائف فلسطين الروحانية ، بلاد النهرين ، كتبهم المقدسة ، أركان الديانة ، بعض معتقداتهم ، أعيادهم .. وخصص المؤلف ص 349 وما بعدها للكلام عن الصابئة وديانتهم .

- البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ، لأبي الفضل عباس بن منصور السكسكي الحنبلي (ت 683هـ) هذا الكتاب هو مجموعة وكوكبة من معارف وإيضاحات العلماء المتقدمين بذكر الفرق والطوائف من المتقدمين ، وكل ذلك يندرج تحت شرح لحديث المصطفى الأمين : " ستفترق أمتي إلى اثنتين . وفي رواية . إلى ثلاث وسبعين فرقة .. " . وجاء ذكر الصابئة في الكتاب الأول : الذي جاء عنوانه الفرعي فصل العقائد الأخرى حيث جاء في ص 51 تسلسل 7 ، وأما الصابئون ، فأسمهم مأخوذ من صبا إذا خرج من شيء إلى شيء ومن دين إلى دين .

- ترجمان الأديان ، الأستاذ الدكتور أسعد السحمراني .

إن هذا الكتاب يعطي فكرة عامة عن الديانتين السماويتين : اليهودية ، والمسيحية وعن الأديان الحية الصابئة ... حيث خصص المؤلف الفصل الأول من كتابه للصابئة ، فأستعرض اللفظة صباً لغة ، إذ هي الخروج من دين إلى دين كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها . وعرف الصابئة بأنهم : قوم يزعمون إنهم على دين نوح عليه السلام . وفي الصحاح . جنس من أهل الكتاب وقبلتهم مهب الشمال عند منتصف الشمال . كما أستعرض وجود الصابئة تاريخياً مستنداً في ذلك إلى آيات القرآن الكريم ... وأماكن انتشارهم ، وعباداتهم ، والتعميد ... الوضوء ، الصلاة .. وتصدرت الصابئة الباب الأول من الكتاب ص 17 وما بعدها .

وهكذا استعرضنا مصادر البحث التي تناولت ديانة الصابئة المندائيين وقد تباينت صفحاتها في ذكرها للصابئة فمنها ما خصص لها فصلاً كاملاً تحدث فيه عن أمور تخص الصابئة تاريخياً وديانة ، ومنها ما خصص أسطر قليلة ، ومنها ما جاءت دراسته موضوعية وأخرى متحاملة .

قام هذا البحث على مقدمة بيّنت الدوافع والأسباب لإنجاز فقراته ، إذ تناول بعد المقدمة قراءة في المظان التي تحدثت عن طائفة الصابئة التي عرفت من زمن قديم ، وتم توثيق أقدم ما عرف عنهم بالمصدر الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه إنه القرآن الكريم حيث ذكر الصابئة ثلاث آيات منه .. كما تناول البحث دراسة تاريخ الصابئة بل طقوس ديانتهم ومدى صلتها بالأديان الأخرى لاسيما المسيحية حيث يشتركون في أمور العبادة كالتعميد مثلاً . كما تم دراسة طقوس من صوم ، وصلاة ، وصدقة ، وطهارة .

قبل أن نحدد من هم الصابئة ونتحدث عن طقوس ديانتهم عنوان بحثنا ، نقول: هناك فرقان يطلق عليهما اسم الصابئة . أما الأولى فتلك التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي :

" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " (1) .

وقوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " (2) .

وقوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " (3) .

ولا بُدَّ بعد ذكر الآيات الخاصة بالصابئة ينبغي الوقوف على آراء المفسرين والمؤرخين في تحديد ماهية الصابئة وقبل ذلك استشارة المعاجم في دلالة كلمة صابئة ، فهي من صَبَأَ صَبَأً وَصَبُوءاً خرج من دين إلى آخر (4) . وصَبَأَ من دين إلى دين يَصْبَأُ مهموز بفتحيتين خَرَجَ فهو صابئٌ ثم جعل هذا اللقب علماً على طائفة من الكفار يقال إنها تَعْبُدُ الكواكب في الباطن ، وتنتسب إلى النصرانية في الظاهر وَهُم الصابئة و (الصابئون) ويدعون إنهم على دين صابئ ابن شيت بن آدم ، ويجوز التخفيف فيقال : الصَابِئُونَ ، وقرأ به نافع (5) . وقد تَصَارَبَتْ آراء المفسرين وغيرهم في هذه الآيات تضارباً كبيراً . وكلها تلاحظ ما أفادته الآيات الكريمة ، وهذا تلخيص لآراء المفسرين في ما استنتجوه من الآيات : إنهم قوم يعبدون الملائكة أو النجوم أو أنهم على دين الفطرة أو إنهم يتلون الزبور أو إنهم خرجوا من الأديان كلها أو إنهم بين اليهود والمجوس أو إنهم ليس لهم عمل إلا قول لا إله إلا الله أو إنهم اختاروا ما استحسَنوه من الأديان (6) .

وقد عدَّهم الزمخشري " قوم عدلوا عن دين اليهود والنصرانية وعبدوا الملائكة (7) ، وذكر الفخر الرازي بأن الصابئة قوم يعبدون الكواكب ، هذه الأراء جعلت الألوسي (8) . يقول بتعدد طوائف الصابئة ، فهناك صائبة حنفاء ، وصابئة مشركون ، وصابئة فلاسفة ، وصابئة يأخذون محاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير تقييد بملة . ثم منهم من يقر بالنبوات جملة ويتوقف عن التفصيل ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلاً .

وإزاء هذا التباين يبدو أن هناك طائفة من الصابئة موحدية دون ريب وإنهم ينزهون الله تعالى كتنزه المؤمنين من أتباع الرسالات السماوية (9) ، وهؤلاء هم الصابئة المندائيون المعاصرون وهم المقصودون ببحثنا وليس صابئة حران أصحاب القصة مع

الخليفة المأمون الذين أمرهم أن يتخذوا لهم ديناً من الأديان السماوية وإلا قتلهم جميعاً لكن المنية عاجلة وتفرق هؤلاء القوم بين من أسلم أو تهوّد أو تنصّر أو بقي على دينه (10) . إذاً نحن نتحدث عن الصابئة المؤمنين ، وهذا جزء نص يؤكد ذلك:

سبحان ملك عالم الأنوار السامي

رب الحق ذو الحول الشامل

الذي لا حدود له

الذي لا حدود له . النور النقي والخير

الرحيم ، الرحمان ، الهادي

بجميع الطيبين ، العزيز الحكيم

العالم البصير القادر على

كل شيء .. رب كل عوالم النور (11)

والصابئة المندائية طائفة قديمة جداً تعتبر يحيى (عليه السلام) نبيها ويقدم أصحابها الكواكب والنجوم ويعظمونها ، ويعتبر الاتجاه نحو القطب الشمالي ، والتعميد في المياه الجارية أهم معالم هذه الديانة . ولأنها ديانة سماوية فقد أجاز الفقهاء المسلمون أخذ الجزية من معتقها أسوة بالكتابية من اليهود والنصارى (12) . لأن كلمة صائبي تعني الارتماس في الماء فقد جعل هذا الصابئة يفضلون السكن على ضفاف الأنهار فكانت مساكنهم الضفاف السفلى من نهري دجلة والفرات ، كما سكنوا مناطق الأهوار ، لذا فهم يكثرون في العمارة ، والناصرية ، والبصرة ، وقلعة صالح ، والحلفاية ، وسوق الشيوخ ، والقرنة التي يلتقى عندها نهرا دجلة والفرات ، كما أنهم سكنوا المحافظات الأخرى التي تقع على مجاري الأنهار مثل بغداد ، والحلة ، والديوانية ، والكوت ، وكركوك ، والموصل ، كما يوجد أعداد منهم في الجبايش والسليمانية . كما أن قسماً يسكن في دول جوار العراق كتركيا وإيران (13) .

قبل القيام ببحث الطقوس الدينية عند الصابئة ، ينبغي الوقوف عند مبادئ ديانة الصابئة أو معتقداتهم ، فقد تشابهت المصادر التي تحدثت عن ذلك ، إذ تُجمع على حقائق ثابتة لهذه الديانة (14) :

- 1- إنَّ الدين الصابئي دين توحيدى يؤمن أتباعه بإله واحد هو خالق الكون لا تراه الحواس ولا تدركه . كما يؤمنون بأخرة فيها ثواب وعقاب .
 - 2- إنَّ الجسم فانٍ ، وإن النفس خالدة ، وهي جزء من روحٍ عليا تعود بعد الممات تلتحق بالملكوت الذي هبطت منه .
 - 3- الطهارة في المياه الجارية هي الشيء المركزى في الدين وتسمى التعميد ، وهو يقوم لديهم مقام الاعتراف وطلب الغفران لمواجهة الحياة مواجهة جديدة نقية خالصة لوجه الله وهي أيضاً علامة اعتناق الدين الصابئي .
 - 4- لديهم كتب كثيرة إلا أن كتابهم الرئيس هو كتاب " السيد را " و " كنزربا " أي الكنز العظيم .
 - 5- يذهب البعض إلى أن تاريخ الصابئة المندائيين يرجع إلى زمن ما قبل المسيح، بينما يرى آخرون أنهم عاصروا المسيح ، وأنهم أتباع النبي يحيى عليه السلام ويطلقون عليه يوحنا المعمدان .
- وفي بعض معتقدات الصابئة المندائية ومعتقدات المسلمين يوجد تشابه ، إذ ترى الصابئة المندائية : إن الخالق واحد أزلي أبدي لا أول لوجوده ، ولا نهاية له ، منزةً عن عالم المادة والطبيعة ، لا تتاله الحواس ، ولا يفضي إليه مخلوق ، وإنه لم يلد ولم يولد ، وهو علة وجود الأشياء ، ومكوّنها ولا يختلف اعتقادهم في الخالق هذا عن اعتقاد المسلمين فيه (15) .
- وبعد هذه الوقفة عند حقائق وثوابت ديانة الصابئة ، لا بد من وقفة أخرى عند كتبهم الدينية ، وقد ذكرتها المظان على وفق الآتي :
- 1- الكنزربا ، أي الكتاب العظيم ويعتقدون بأنه صحف آدم عليه السلام ، وفيه موضوعات كثيرة تتصل بالكون ونظامه .
 - 2- دراشة إديهيا ، أي تعاليم يحيى عليه السلام ، وفيه تعاليم يحيى عليه السلام .
 - 3- الفلسنا : أي كتاب عقد الزواج ، وفيه إيضاح للنكاح الشرعي والخطبة .
 - 4- سدرة إندشماتا : وتدور موضوعاته حول عالم العالم الآخر بدءاً من التعميد والدفن وانتقال الروح من الجسد إلى الأرض ، ومن ثم إلى عالم الأنوار .

- 5- كتاب الديونان : فيه قصص وسير بعض الروحانيين مع صور لهم .
- 6- كتاب إسفرملواشة : أي سفر البروج لمعرفة حوادث السنة المقبلة عن طريق علم الفلك والتنجيم .
- 7- كتاب النيانى : أي الأناشيد والأذكار الدينية .
- 8- كتاب قماها ذهيقل زيوا : وهذا الكتاب عبارة عن حجاب يعتقدون بأن من يحمله لا يؤثر فيه سلاح ولا نار .
- 9- تفسير بغره : يختص في علم تشريح جسم الإنسان وتركيبه والأطعمة المناسبة لكل طقس مما يجوز لأبناء الطائفة تناوله .
- 10- كتاب ترسر ألف شياله : أي كتاب الأثني عشر ألف سؤال يتناول الأخطاء في الطقوس وطريقة غفرانها ، وكذلك الشعائر الدينية المصاحبة لذلك .
- 11- ديوان طقوس التطهير : وهو كتاب يبين طرق التعميد بأنواعه على شكل ديوان .
- 12- كتاب كدا وأفياتا : أي العوذ (16) .

هذه هي الكتب الدينية التي يعتمدها الصابئة المندائيون في القيام بطقوس دينهم ، ويلاحظ أن عددها هو اثنا عشر كتاباً وهو مساوٍ للبروج السماوية .

وتساوي كتب الصابئة عدد أشهر السنة الأثني عشر ، إلا أن سنتهم تساوي 360 يوماً ، في 12 شهراً وفي كل شهر ثلاثون يوماً مع خمسة كبيسة يقام فيها عيد البنجة (17) . ويبدو أن لهذا الحساب الدنيوي علاقة بعبادتهم ، إذ أنهم يجعلون بعد الإله الخالق الواحد الذي لا تتاله الحواس ولا يفضي إليه مخلوق (360) شخصاً خلقوا ليفعلوا أفعال الإله (كذا) وهؤلاء الأشخاص ليسوا بآلهة ولا ملائكة يعملون كل شيء من رعد وبرق ومطر وشمس وليل ونهار ، وهؤلاء يعرفون الغيب (كذا) ولكل منهم مملكته في عالم الأنوار ، وإن هؤلاء الأشخاص الـ (360) شخصاً ليسوا مخلوقين كبقية الكائنات الحية ؛ ولكن الله ناداهم بأسمائهم ، فخلقوا وتزوجوا بنساء من نفهم ، ويتناسلون بأن لفظ أحدهم كلمة فتحمل امرأته فوراً وتلد واحد منهم (18).

ولما كان موضوع بحثنا بعنوانه " طقوس ديانة الصابئة المندائيين ، فقد وجب الوقوف عند مفردات العنوان وشرحها باستشارة المعاجم العربية (19) .
لقد عنت كلمة طقس وجمعها طقوس النظام والترتيب ... نظام الخدمة الدينية أو شعائرها واحتفالاتها .

أما كلمة ديانة ، فهي ما يتدبر به الإنسان ، وهي اسم لجميع ما يعبد به الله ، والملة ، والإسلام ، والاعتقاد بالجنان ، والإقرار باللسان وعمل الجوارح ، والسيره ، والعادة ، والشأن ، والورع ، والحساب ، والملك ، والسلطان ، والحكم ، والقضاء ، والتدبر (20) .

أما لفظ الصابئة فقد عنت صَباً مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ (يَصْبَأُ) مهموز بفتحتين خَرَجَ فَهَوَّ (صابئ) ثم جُعِلَ هذا اللقب عَلَماً عَلَى طائفة ... تنسب إلى النصرانية ويدعون إنهم على دين صابئ بن شيت بن آدم (21) ، ويجوز التخفيف فيقال : (الصابون) (22) ، وقرأ به نافع .

وهناك من يرى أن لفظ الصابئين مأخوذة من كلمة " صَبَأُ " الآرامية وتعني الإرتماس بالماء والمعمودية وليس من كلمة صَبَأُ العربية التي تعني خروج الفرد من دين آباءه إلى دين آخر (23) . أما المندائيون فهي جمع مندائي وهذه الكلمة مأخوذة من كلمة مندائي باللغة الآرامية وتعني العارف من الفعل (مَدَّعَا) أي عرف أو علم كما أوضح ذلك الدكتور مراد كامل في كتابه تاريخ الأدب السرياني (24) وعلى هذا فالمندى هو معبد الصابئة .

وما يمكن ملاحظته في الدراسات التي تطرقت للصابئة أن أكثرها اكتفت بإطلاق لفظ الصابئة لاسيما القديمة منها (25) . بينما أطلق عليهم البعض الآخر من الدراسات " الصابئة المندائيون " (26) . وقد أطلق عليهم أحد المراجع الحديثة الصابئة وعبد الرحمن . ويبدو أنّ المؤلف يشير إلى الصابئة المندائيين وصابئة حران (27) .

تكاد تتفق المظان التي تحدثت عن طقوس ديانة الصابئة على مفردات العبادات التي يؤديها الصابئون في حياتهم (28) . وهي : العماد ، والصلاة ، والصوم ، والصدقة . والعماد المندائي يمارس بثلاثة أنواع وهي :

- العام ويطلق عليه مصبوتاً ، ومن مستلزماته الماء الجاري وقد عوض فيما بعد بأحواض الماء التي تقام داخل المندي مع أكليل الريحان أو الآس إشارة إلى الطيب كما يشترط الملابس الدينية ، ودعاء هذا العماد : " رسمي لا يكون بالنار ولا بالزيت ولا بالمسح رسمي بالماء العظيم ماء الله الحي .
 - والنوع الثاني هو العماد الشخصي ويسمى " طماشه " وهذا العماد مجرد اغتسال عن النجاسات كالجنابة وغيرها .
 - والنوع الثالث من العماد يسمى " رشامة " وهذا هو الوضوء ويمارس ثلاث مرات يومياً وتغسل خلاله الأعضاء الخارجية (29) .
- وبعد أن ينتهي المندائي من الوضوء يقوم بالتوجه إلى القبلة وهي عند أديان الصابئة جهة الشمال . وصلاة المندائي عبارة عن قراءة وتبريكات الانحناء كلما وردت كلمة السود في النص المقروء كقولهم : " قوموا أيها المؤمنون أسجدوا وسبحوا لله العظيم " . وهذا يكون في الصلاة الجماعية التي تتم في المندي (30) . وهناك صلاة شخصية يصلحها المندائي في مناسبات معينة .
- وإن الصلاة التي تقام في المندي الذي يضم كتبهم المقدسة ، ويجري فيه التعميد يجب أن يقع على ضفة النهر اليمنى ، وله باب واحد يقابل الجنوب بحيث يستقبل الداخل فيه نجم القطب الشمالي ، ولا بد من وجود قناة متصلة بماء النهر وفوق المندي علم يحيى (ع) (31) .
- أما أوقات تأدية الصلاة وأسلوبها ومستلزمات أداؤها فتكون على وفق ما هو مقرر في كتبهم المقدسة . فهي تؤدى ثلاثة مرات في اليوم : قبيل الشروق ، وعند الزوال ، وقبيل الغروب : وتستحب أن تكون جماعة في أيام الأحاد والأعياد ، فيها وقوف وركوع وجلوس على الأرض من غير سجود ، وهي تستغرق ساعة وربع الساعة .
- يتوجه المصلي خلالها إلى الجدي بلباسه الطاهر ، صافي القدمين ، يتلو سبع قراءات يمجد فيها الرب ، مستمداً منه العون في تيسير اتصاله بعالم الأنوار ، أما الركن الآخر لديانة الصابئة المندائيين فهو الصوم ، وفيه يتمتعون عن أكل اللحوم

المباحة لهم مدة (36) يوماً متفرقة على طول أيام السنة (32) . وقد حرّم صابئة اليوم الصوم لأنهم عدّوه من باب تحريم ما أحلّ الله (33) .

ومفروض على أصحاب هذا الديانة الطهارة ذكوراً وإناً سواً بلا تمييز، وتكون في الماء الحي غير المنقطع عن مجراه الطبيعي . وتكون طهارة الجنابة بالارتماس في الماء ثلاث دفعات مسبقة بنية الاغتسال من غير قراءة لأنها لا تجوز على جنب عقب الارتماس في الماء يجب الوضوء ، وهو واجب لكل صلاة حيث يتوضأ الشخص وهو متجه نحو القطب ، فيؤديه على هيئة تشبه وضوء المسلمين مصحوباً بأدعية خاصة . وللوضوء مفسدات هي :

البول ، والغائط ، والريح ، ولمس الحائض ، والنفساء .

أما التعميد فهو أبرز معالم ديانة الصابئة المندائيين ولا يكون إلا في الماء الجاري ، ولا تتم طقوسه إلا بالارتماس في الماء سواءً أكان الوقت صيفاً أم شتاءً، وقد أجاز لهم علماءهم مؤخراً الاغتسال في الحمامات ، وكذلك في العيون النابعة لتحقيق الطهارة . ويجب أن يتم التعميد على أيدي رجال الدين . وللتعميد حالات متعددة (34) ، وهي على النحو الآتي :

- 1- الولادة : يعمد المولود بعد 45 يوماً ليصبح طاهراً من دنس الولادة ويتم ذلك بإدخال الوليد في الماء الجاري إلى ركبتيه مع الاتجاه إلى جهة نجم القطب .
- 2- عماد الزواج : ويتم هذا التعميد يوم الأحد وبحضور ترميدة أو كنزبرا ويتم على ثلاث دفعات في الماء مع قراءة في كتاب الفلستا ولباس خاص ثم يشرب العريسان من قنينة ملئت بماء آخذ من النهر ثم يطعمان البهئة (أكلة) ويدهن جنبيهما بدهن السمسم ويكون ذلك لكلا العروسين لكل منهما على حدة، بعد ذلك لا يلمسان لمدة (7) أيام حيث يكونان نجسين ، وبعد الأيام السبعة من الزواج يعمدان من جديد (35) .
- 3- عماد الجماعة : ويكون في كل عيد (بنجة) من كل سنة كبيسة لمدة خمسة أيام ويشمل أبناء الطائفة جميعاً رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً وذلك بالارتماس بالماء الجاري ثلاث دفعات قبل تناول الطعام في كل يوم من أيام العيد ،

والمقصود منه التكفير عن الخطايا والذنوب المرتكبة في بحر السنة الماضية⁽³⁶⁾.

والى جانب ما ذكر من أنواع التعميد فهناك تعמיד خاص بالأعياد وهي : تعמיד أعياد الصابئة الأربعة ، وتعמיד المحتضر ودفنه وهذه هي الأعياد التي يتم فيها التعميد :

- 1- العيد الكبير : عيد الأنوار حيث يعتكفون في بيوتهم (36) ساعة متتالية لا تغمض لهم عين خشية أن يتطرق الشيطان إليهم لأن الاحتلام يفسد فرحتهم ، وبعد الاعتكاف يرتسمون في الماء ، ومدة العيد (4) أيام تذبج الخراف والدجاج ولا يقوم خلاله بأي عمل دنيوي .
 - 2- العيد الصغير : يوم واحد شرعاً ، وقد يمتد لثلاثة أيام من أجل التزاور ، ويكون بعد العيد الكبير بمائة وثمانية عشر يوماً⁽³⁷⁾ .
 - 3- عيد البنجة : وقد مرّ ذكره وهو خمسة أيام تكبس بها السنة ويأتي بعد العيد الصغير بأربعة أشهر .
 - 4- عيد يحيى : يوم واحد من أقدس الأيام يأتي بعد عيد البنجة بعد ستين يوماً ، وفيه كانت ولاية النبي يحيى (ع) الذي يعتبرونه نبياً خاصاً بهم ، والذي جاء ليعيد إلى دين آدم صفاءه بعد أن دخله الإغراق بسبب تقادم الزمن⁽³⁸⁾ . أما تعמיד المحتضر ودفنه فله أسلوب حيث يكون ذلك .
- يتم تعמיד المحتضر قبل زهوق روحه حيث يؤخذ إلى الماء الجاري ، وفي أثناء العماد يغسلونه متجهاً إلى نجم القطب الشمالي ، ثم يعيدونه إلى بيته ويجلسونه في فراشه مواجهاً القطب الشمالي حتى يوافيه الأجل ، وهم في ذلك يشبهون المسلمين عندما يوجه محتضريهم نحو القبلة . وبعد ثلاث ساعات من موته يغسل ويكفن ويدفن حيث يموت ولا يجوز نقله من بلد إلى بلد آخر . أما من مات غيلة أو فجأة فإنه لا يغسل ولا يلمس ويقوم الكنزيرا بواجب العماد عنه⁽³⁹⁾ .

أما أسلوب الدفن عند الصابئة فيكون بوضع الميت مستلقياً على ظهره ورجلاه متجهة نحو الجدي حتى إذا بعث واجه الكوكب الثابت بالذات ، ويضعون في قم الميت قليلاً من تراب أول حفرة تحفر لبقبره فيها .

ويحرم على أهل الميت النذب والبكاء والعويل ، والموت عندهم مدعاة للسرور ، ويوم المأتم عندهم أكثر الأيام فرحاً حسب وصية يحيى لزوجته . ومن تعاليمهم إنه لا يوجد خلود في الجحيم ، بل عندما يموت الإنسان أما أن ينتقل إلى الجنة أو المطهر حيث يعذب بدرجات متفاوتة حتى يطهر فتتقل روحه بعدها إلى الملاء الأعلى ، فالروح خالدة والجسد فان (40) .

هذه أساليب تعميم الميت ودفنه وما يؤول إليه حاله حيث أن الجسد يفنى وتخلد الروح في الملاء الأعلى .

خاتمة البحث ونتائجه

- بعد هذه الرحلة القصيرة الممتعة بين مصادر البحث ومراجعته التي تحدثت عن طقوس ديانة الصابئة المندائيين ، حيث تبين للبحث أن الإشارات التي وردت تشير إلى ديانة مختلف في تاريخ نشوئها على مسرح الأحداث في العالم القديم .
- ورد ذكر الديانة الصابئية في القرآن الكريم في ثلاثة آيات هي البقرة /62، الحج /17 ، والمائدة /69.
- اختلف الباحثون ، والمفسرون والمؤرخون في شأن الصابئة : حقيقة معتقدتهم، نبيهم وكتابهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، فمرة هم موحدون على الملة الحنيفية دين إبراهيم الخليل ، وأخرى ، هم طائفة من اليهود ، وثالثة فرقة مسيحية .

- لأن العماد ركن أساس من أركان ديانة الصابئة وطقوسهم فأنهم قد سكنوا ضفاف الأنهار وبنوا معابدهم في جهتها اليمنى ، وموطنهم الأصلي جنوب العراق وجنوب غربي إيران .
- المصادر القديمة سمتهم باسم الصابئة ، أما المراجع الحديثة فقد سمتهم " الصابئة المندائيون " وهؤلاء يختلفون عن طائفة من الصابئة يسمون باسم صابئة حران .
- يوجد تشابه بين بعض الطقوس الدينية وبين بعض أهل الديانات الأخرى لاسيما المسيحية والإسلام .
- إن ديانة الصابئة ديانة مغلقة غير تبشيرية .

هوامش البحث :

- (1) البقرة . آية . 62 .
- (2) المائدة . آية . 69 .
- (3) الحج . آية . 16 .
- (4) المعجم الصافي : مادة (صَبَأ) .
- (5) المصباح المنير : مادة (صَبَأ) .
- (6) تفسير الطبري 146/2 ، تفسير ابن كثير 189/1 ، الحياة والموت في الشعر الجاهلي 75 .
- (7) الكشاف 218/1 ، الحياة والموت في الشعر الجاهلي 76 .
- (8) بلوغ الأرب 225/1 .
- (9) ترجمان الأديان /21 .
- (10) ينظر الصابئون في حاضرهم وماضيهم 39-40 .
- (11) الصابئة المندائيون : 345 وينظر : ترجمان الأديان 20-21 .
- (12) الموسوعة الميسرة : 317 .

- (13) نفسه : 325.
- (14) ينظر : الصابئة المندائيون : 1-2 ، والعقائد والأديان 190-191 ، موسوعة اللغات العراقية : 355.
- (15) الصابئون في حاضرهم وماضيهم : 55 ، ترجمان الأديان : 22 ، الموسوعة الميسرة : 319.
- (16) الموسوعة الميسرة : 318 ، وينظر : الصابئة المندائيون : 5 .
- (17) الموسوعة الميسرة : 323.
- (18) نفسه : 320.
- (19) المعجم الوسيط : مادة (طقس) .
- (20) نفسه : مادة (دان) .
- (21) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير : مادة (صبأ) .
- (22) الحور العين : 141.
- (23) الصابئون المندائيون : 1.
- (24) الصابئة المندائيون : 8 .
- (25) الصابئون في حاضرهم وماضيهم ، الحسني ، والعقائد والأديان : 16 ، عبد القادر صالح : 190 ، ترجمان الأديان : 19 ، الحور العين : 141 ، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان : 51 ، الملل والنحل : 223 ، ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي : 49.
- (26) الصابئة المندائيون : المقدمة ، الأديان والمذاهب بالعراق : 21 ، موسوعة اللغات العراقية : 349 .
- (27) الحياة والموت في الشعر الجاهلي : 75.
- (28) الأديان والمذاهب في العراق : 58 ، العقائد والأديان : 191 ، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب : 220
- (29) المذاهب والأديان : 58.
- (30) نفسه .
- (31) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب : 220.
- (32) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب : 320.
- (33) ينظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : 321.
- (34) نفسه : 321-322.

- (35) ينظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب : 321-322.
- (36) نفسه : 322.
- (37) نفسه .
- (38) ينظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب : 322 .
- (39) نفسه: 322-323.
- (40) نفسه .

مصادر البحث ومراجعته

- * القرآن الكريم .
- الأديان والمذاهب بالعراق ، رشيد الخيون ، منشورات روح الأمير ، الطبعة الأولى ، لسنة 1426 هـ .
- البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ، لأبي الفضل عباس بن منصور السكسكي الحنبلي المتوفى 683 هـ ، منشورات محمد بيضون ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، 1425 هـ . 2004 م .
- بلوغ الأرب ، آلوسي ، إشراف الأثري ، دار الكتاب العربي بمصر ، الطبعة الثالثة .
- ترجمان الأديان ، أ.د. أسعد السحمراني ، دار النفائس ، 1430 هـ . 2009 م .
- تفسير ابن كثير . ابن كثير ، المنار ، 1343 هـ .
- تفسير الطبري ، جامع البيان ، الطبري . أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، 1960 م .
- تفسير الزمخشري ، الكشاف . الزمخشري ، الأميرية بمصر ، 1318 هـ .

- الحور العين ، للأمير علامّة اليمن أبو سعيد بن نشوان الحميري المتوفى 573هـ ، حقه وضبطه وعلق حواشيه ووضع فهرسه كمال مصطفى ، أُعيدت طبعه في طهران 1972م .
- الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، د. مصطفى عبد اللطيف جاووك ، منشورات وزارة الإعلام ، الجمهورية العراقية ، لسنة 1977م.
- الصابئة المندائيون في حاضرهم وماضيهم ، السيد عبد الرزاق الحسني ، الطبعة السادسة ، منشورات المكتب العربي لتوزيع المطبوعات ، بغداد ، 1404هـ . 1984م.
- الصابئة المندائيون ، الليدي دراوور ، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي ، الطبعة الثانية ، بغداد ، 1987م .
- العقائد والأديان ، جمع وإعداد عبد القادر صالح ، دار المعرفة ، بيروت . لبنان ، 1427هـ . 2006م.
- ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي ، د. صادق مكي ، دار الفكر اللبناني ، الطبعة الأولى ، 1991م.
- الملل والنحل ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، (ت 549هـ) ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، الطبعة الأولى ، 1427هـ . 2006م .
- موسوعة اللغات العراقية ، عمل جماعي ، سليم مطر ، دار الكلمة الحرة ، بيروت ، تموز 2009م.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية ، 1409هـ . 1989م .

